الفصل السابع

عجائب الأرض

الحكم والأسرار في خلق الأرض:

وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال، فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكنافها ودحاها، فمدها وبسطها وطحاها، فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحيَاء، وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات.

وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]. ... وهذا كثير في القرآن.

فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت، فتحركت وربت، فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيج للناظرين كريم للمتناولين، فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه، والثمار، وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير.

ثم انظر إلى قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماءً واحدًا، فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم، والمنفعة واللقاح واحد، والأم واحدة كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو.

ولولا ان هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها خلق الجنين دليلًا على هذه النتائج الخمس مستلزمًا للعلم بها.

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ، الصم الصلاب وكيف نصبها، فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض، لئلا تضمحل على تطاول السنين، وترادف الأمطار والرياح، بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم، كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس، والسلاح وآلات المعاش على اختلافها، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه ولا قدرة عليه(١).

(١) السابق (١/ ٣٠٩-٣١٠).

سكون الأرض وتذليلها للحياة عليها:

ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة، لتكون مهادًا ومستقرًا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة منكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوءًا، ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم!

واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل -على قلة مكثها- كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، وفي القراءة الأخرى: مهادًا وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «**قال لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد قالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار قالوا: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الريح قالوا: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**»(١).

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو فرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها، وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها، فنقصت

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣٣٦٩]، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم [٤٧٧٠].

عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير، فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة، فتهيأ عليها جميع المصالح.

الحكمة في مهب الرياح:

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض، فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبًا للماء ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء، فافسده كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق.

أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء(١)؟!

منافع الجبال والحكمة من خلقها:

ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع الله أمرك بكذا وكذا؟ قال: «**اللهم نعم**» فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها(٢) حاضنًا لشراب الناس إلى حين نفاذه، وجعل فيها ليذوب أولًا فأولا، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربُّا ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل.

(١) السابق [٣٣٦-٣٣٧].

(٢) قلة الجبل قمته وأعلاه جمعها قلل وقلال.

فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض، فانحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها: ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان ومن منافعها: ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية(١) وغيرها.

ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة، والنحاس والحديد، والرصاص والزبرجد، والزمرد وأضعاف ذلك، من أنواع المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة، وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه وتعالى.

ومن منافعها: أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا، فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها: أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها، فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها لأخربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها: أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

فالجواري: هي السفن، والأعلام: الجبال واحدها علم، قالت الخنساء:

وإن صخرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاْة بِهِ … كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَاْسِهِ نَارُ

(١) الأرحية: جمع رحا، وهي الأداة التي يطحن بها.

فسُمِّي الجبل علمًا من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية، التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها: ما ذكره الله تعالى في كتابه، أن جعلها للأرض أوتادًا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة[1].

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩]

فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي

(١) رواه البخاري برقم[١٤٨١] «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه»

التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه ومنها الجبل الذي تجلى له ربه، فساخ وتدكدك، ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه(١).

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا على بيته وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات، فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة(٢).

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤوا من كل فج عميق وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته، خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رؤوسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة(٣)، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه(٤) حتى أكرمه الله برسالته وهو في غاره، فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

---

(١) ذكر العلماء في العصر الحديث أن الجبل الذي يبلغ طوله ألف متر يكون له أصل في الأرض يبلغ ألفي متر، وهذا معنى «أوتادًا» ويعد من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم «انظر كتاب المعجزة الباقية للمحقق».

(٢) السابق [٣٣٧-٣٣٩].

(٣) رواه مسلم برقم [١٣٤٨].

(٤) رواه البخاري برقم [٣]، ومسلم برقم[١٦٠].

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء، من الجبال، والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته، ووضع عليه محبةً منه فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم:

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْبِقَاعِ وَجَدْتَهَا تَشْقَى كَمَا تَشْقَى الرِّجَالُ وَتَسْعَدُ

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا.

خُذْ مَا تَراه وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

هذا وإنها لتعلم أن لها موعدًا ويومًا تنسف فيها نسفًا وتصير كالعهن[1] من هوله وعِظَمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت، فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمع الجبال ما وعدها ربها، فيقال: ما أسمعها: فتقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى، فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه.

---

(١) العهن: الصوف، وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

obeikandl.com

فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلًا فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم[(١)(٢)].

الحكمة في تنويع أشكال الأرض:

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر، والجبال والرمل، لينتفع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة: لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس، والحيوان، من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها.

---

(١) السابق [٣٤٠-٣٤١].

(٢) هذه الجبال الصم الصلاب نؤمن وفوقن أنها تذعن بالعبودية لربها جل جلاله، فهي تسجد لله وتعبده وتوحده، وتسبح بحمده، وتخضع لأمره وتخشع عند ذكره وتحب المؤمنين لأنها خلق من خلق الله، وقد بين الله عز وجل كل عبده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن جعل الجبال تسبح معه في أول النهار وآخره بصوت مسموع قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨-١٩]، يا له والله من مشهد ما أروعه! الجبال تسبح مع نبي الله داود وترجع معه ذلك التسبيح كما أمرها ربها وفاطرها جل جلاله فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وانظر كيف يخشع الجبل ويتدهده لعظمة الله جل جلاله فعندما طلب نبي الله موسي من ربه أن يراه وقال ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فأعلمه الله بأنه لن يطيق ذلك في دار الدنيا لأن هذه الحواس عاجزة عن ذلك بخلاف الحال في الآخرة ثم أراه الله آية على ذلك فقال: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأثبت الله عَزَّ وَجَلَ سجود الجبال له في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، ويتصدع الجبل ويخشع من ذكر وسماع كلامه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فسبحان من سبحت بحمده الجبال وخشعت عند ذكره الصم الصلاب [انظر كتابي «عبودية الكائنات» ط مكتبة الإيمان.

وجعلها سبحانه كفاتًا[(١)] للأحياء ما داموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها، فكانت كفاتًا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتًا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودُنُوُّ المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها من بطنها إلى ظهرها، وتقول: رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى، ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر[(٢)].

سعة الأرض وامتدادها:

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الأنس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم.

فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة؟

فاعلم أن فيها معايش مالا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب، وعليها أرزاقهم، وفيها مطردهم ومنزلهم، كالمدن والمساكن للإنس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء سملق[(٣)] صارت قصورًا وجنانًا ومساكن، ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين في أماكنهم لا يجدون عنها انتقالًا، إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم إلى النقلة منها.

وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه، ولغلب القوي الضعيف، واستبد به دونه، فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة

---

(١) كفاتًا: أي جامعة للأحياء والأموات.

(٢) السابق [٣٤١].

(٣) أي: قاع صفصف.

جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع، فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة في كل وقت.

وأما النار فقد تقدم أن الحكمة اقتضت كمونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي وإن لم تكن مبثوثة في كل مكان، فإنها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها للحكمة التي تقدمت.

أسباب الزلازل:

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ، أذن الله سبحانه لها في بعض الأحيان بالتنفس، فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم.

وقال عمر بن الخطاب- وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال-: لئن عادت لا أساكنكم فيها.

الذهب والفضة وما فيها من حكم:

ثم تأمل حكمة الله -عزَّ وَ جَلَّ- في عزة هذين النقدين -الذهب والفضة- وقصور خبرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك، فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك، لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صار كالسعف والفخار، وكانت تتعطل المصلحة التي وضعا لأجلها وكانت كثرتهما جدًا سبب تعطل الانتفاع بهما، فإنه لا يبقى لهما قيمة ويبطل كونهما قيمًا لنفائس الأموال والمعاملات، وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب

وفضة، فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم، فمن يرضى لنفسه بامتهانها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها.

فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم، ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية، بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضه حكمته ورحمته ومصالح عباده.

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال: أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل، فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلبًا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره، فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به، فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون، فانصرفوا آيسين. وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وأنها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبينا فسادها من أربعين وجهًا في رسالة مفردة.

والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين قلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس، والرصاص، لصلاح أمر الناس، واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان نفيسًا عزيزًا ما دام فيه قلة وهو مرغوب فيه، فإذا فشا وكثر في أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه.

ومن هذا قول القائل: نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس في العالم أهله وجبرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه(١)(٢).

---

(١) وهذا من الأمور الثابتة المشاهدة والتي لا مرية فيها.

(٢) السابق [٣٤٢-٣٤٤].

obeikandl.com

الهواء وحاجة العالم إليه:

ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس، عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجرى بين السماء والأرض والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل.

وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء، واللواقح ورياح العذاب العاصف والقاصف، وهما في البحر -والعقيم والصرصر- وهما في البر- وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه. وهي مختلفة في مهابها فمنها صبًا ودبور وجنوب وشمال وفي منفعتهًا وتأثيرهًا اعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه.

ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها، فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذى النبات.

ولما كانت الرياح مختلفة في مهابهًا وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها تكسر سورتها[١] وحدتها ويبقى لينها ورحمتها.

(١) شدتها.

فرياح الرحمة متعددة، وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها، بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف اطرد هذا في البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس: ٤٤]، فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه.

فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق[1] مثلًا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل، كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء، فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوي الشديد.

وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه. وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء،

(١) الزق: وعاء من جلد يجز شعره، يتخذ للماء والشراب وغيره.

فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق.

وهذا كالذي يهوى في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب، فينجو بتعلقه به فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد.

عجائب الهواء:

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه، فتتغذى به ظاهرًا وباطنًا وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه الأصوات.

وهو أيضًا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات، وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب.

وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة[1] أولًا، فتثيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض، فيصير طبقًا واحدًا ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى، فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهامًا[2] لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث

---

(١) هذا - وما بعده- من أسماء الرياح.

(٢) الجَهَام: السحاب لا ماء فيه.

Obeikandl.com

أمر، فيفرغ ماءه هنالك ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو، فلا ينزل مجتمعًا ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيمًا، وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر. ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها.

وبالجملة: فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي(١) النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد.

ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو!

فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي ﷺ في الرياح **«إنها من روح الله تأتي بالرحمة»**(٢).

وتنبه لطيفة في هذا الهواء وهي أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت، فيحمله الهواء ويؤديه إلى ما مع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم، فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلأ العالم منه، ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبداله بالكتاب المملوء كتابة، فإن ما

---

(١) ذوي النبات: ذبل ويبس وضعف.

(٢) رواه أبو داود برقم [٥٠٩٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم [٧٣١٦].

Obeikandl.com

يلقى من الكلام في الهواء أضعاف ما يودع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاسًا خفيًا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم ينمحي بإذن ربه، فيعود جديدًا نقيًا لا شيء فيه، فيحمل ما حمل كل وقت.

عجائب السحاب:

ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح، فتثيره كسفًا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه -الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح- ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوي عليها أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو، فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح.

وفي الترمذي وغيره أن النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: «**هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه**»(١)، فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم(٢) وكان الحسن إذا رأى السحاب قال: في هذا -والله- رزقكم ولكنكم تحرموه بخطاياكم وذنوبكم.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتًا في سحابة أسق حديقة، فلان فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال: ما اسمك يا عبد الله؟ قال فلان للاسم الذي سمعه في السحابة**»(٣).

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم [٦٠٩٤].

(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٨٤].

وبالجملة فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعًا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشًا ويرسله قطرات مفصلة لاتختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه.

فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات، فهذا النبات يغذي وهذا يصلح الغذاء وهذا ينفذه وهذا يضعف وهذا سم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها، وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يهيج الدم، وهذا يسكنه وهذا ينوم، وهذا يمنع النوم، وهذا يفرح، وهذا يجلب الغنم، إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولاعرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها.

وانظر إلى مجاري الماء في تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه، كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف

في تلك المجاري بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا يناالها البصر[(١)].

الحكمة في خلق الأمطار:

ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها، ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك -فساد فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشيء سبحانه السحاب- وهي روايا الأرض -ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج[(٢)]

وفي الموطأ مرفوعًا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة:«**إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة**»[(٣)]، فالله سبحانه ينشيء الماء في السحاب إنشاء تارة بقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي ذكرناها، ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريًا على ظهرها لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها،

---

(١) السابق [٣١٠-٣١٣].

(٢) النئيج: الحركة السريعة.

(٣) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٩٢)، برقم [٤٥٢] وقال ابن عبد البر: لا أعرفه بوجه من الوجوه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم، وقال الهثمي في المجمع (٢/ ٢١٧): رواه الطبري في الأوسط وتفرد به الواقدي وفي الواقدي كلام.

فصاعده سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها، فأنزله ومعه رحمته على الأرض.

نزول الأمطار بقدر الحاجة:

ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها -منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها -أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما- أعني الصحو والغيم- يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده، فلو توالت الأمطار لأهلكت ما علي الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضروات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء، فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل.

ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبًا من الأمراض عسرة الزوال.

فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم، فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح[1].

الحر والبرد وما فيها من حكم

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما، وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته، ولو دخل عليه مفاجاة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات، كما لو خرج الرجل من الحمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك.

(١) السابق [٣٤٥-٣٤٦].

فإن قلت: هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها، قيل لك: فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع؟ فإن قلت: السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها، قيل لك: فما السبب في بعد المسافة؟ ولا يمكنه أيضًا أن يقول: بعد المسافة؛ لأن القمر يقطعها في شهر، والشمس تقطعها في سنة لهذه الحكمة البينة.

ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببًا حتى تفضي بك إلى أحد أمرين: إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع، وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السماوات والأرضين والدخول في زمرة أولى العقل من العالمين.

ولن تجد بين القسمين واسطة أبدًا، فلا تتعب ذهنك بهذيات الملحدين فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين، وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة، فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

منافع النار وما في خلقها من حكم وأسرار[١]:

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون[٢] والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها.

(١) سبق ذكر شيء هذا ولكن هنا يأتي الكلام منفصلًا.

(٢) الكمون: الاختفاء والتواري.

فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤].

فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعًا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء، هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والأنس وغير ذلك[(١)].

لماذا اختص بها الإنسان دون غيره؟

تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان، فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها.

وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به من حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفًا في ظلمة الليل الداجي؟ وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل، فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك؟

ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد!

---

(١) السابق [٣٣٢-٣٣٣].

ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفذ ولا يضعف.

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف مالا ينتفع إلا بجفافه وتحليل مالا ينتفع إلا بتلحيله وعقد مالا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى.

ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلًا، فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم(١)؟!

العقاقير التي يخرجها الله من الأرض:

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع، فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتسبت، وهذا يستخرج المرة السوداء(٢)، وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام، وهذا يسكن الهيجان والقلق، وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل، وهذا يفرح القلب إذا تراكمت عليه الغموم، وهذا يجلو البلغم ويكشطه، وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة(٣)، وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره، فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش، وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها، وهذا يعطي

(١) السابق [٣٣٣-٣٣٤].

(٢) المرة: خليط من أخلاط البدن وهو المسمي: المزاج. ويقال غلبت عليه المرة:هاجت.

(٣) أي: شهوة الجماع.

obeikandl.com

اللون إشراقًا ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها، وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد.

فسل المعطل(١) من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب، والعروق؟ ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد- بل الحيوان- إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر؟ ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأي عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق -له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق- لولا إنعام الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذي فطن لها البهائم في أشياء كثيرة؛ منها مالا يهتدي إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات، فيبرأ فمن الذي جعله يقصد ذلك النبات دون غيره، وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر، فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئًا من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء في مبادئ الطب في كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك؟ ومن أرشدها إليه؟ ومن دلها عليه؟ أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول، وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذي لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وإنه لو كان معه في سمواته وأرضه إله سواه لفسدت السماوات والأرض واختل نظام الملك، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

ولعلك أن تقول ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحارى والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن، وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار

---

(١) المعطل الذي عطل صفات الله ونفاها عنه وأنكر حكمته ورحمته وتدبيره لهذا الكون العظيم الذي فطره العليم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

Obeikandi.com

عقلك ونهاية علمك، فكم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعم وحش وطير ودواب مساكنها حيث لاتراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه[(١)].

الحكمة في تيسيره على العباد ما تشهد حاجتهم إليه:

وتأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذلك وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها.

فاعتبر هذا بالأصول الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لايمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظه واحدة، ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد.

فتأمل حكمة ربك في أن سخر له الرياح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحابًا أو ضبابًا فأذهبت عن العالم شره وأذاه.

فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير؟ وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابًا أو ضبابًا أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه

---

(١) السابق (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

عنهم، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح، فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس(١).

عجائب البحار:

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء.

ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية. والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك العيش الحيوان الأرضي في الأرض.

وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه.

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**»(٢).

وهذا أحد الأقوال في قوله عَزَّ وَ جَلَ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]. أنه المحبوس، حكاه ابن عطية وغيره.

قالوا: ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه.

---

(١) السابق (١/ ٣٤٣).

(٢) ضعفه الألباني في الضعيفة (٩/ ٣٨٣) برقم [٤٣٩٢].

وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض، وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى أن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها، فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك، فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلًا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها.

ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي.

وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه.

ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره، بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]. فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا.

obeikandl.com

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحَاقَة:١١-١٢][١].

حاجة البحار والمخلوقات لإقامة الله لها:

والله سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تغيض أو تفيض على العالم، ويمسك السماء أن تقع على الأرض، ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن ويمسك القلوب الموقنة أن تزيغ عن الإيمان، ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود ويمسك على الموجودات وجودها ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت والكل قائم بأفعاله وصفاته التي هي من لوازم ذاته فليس الوجود الحقيقي إلا له أعني الوجود الذي هو مستغن فيه عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه بالذات لا قيام له بنفسه طرفة عين[٢].

عجائب الأسماك:

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شدادي يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف[٣] من جانبي السفينة وكسى جده قشورًا متداخلة، كتداخل الجوشن[٤] ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٥- ٣١٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٧١) ط دار الكتاب العربي بيروت.

(٣) أي: المجاديف.

(٤) يعني الدرع وهو قميص من حديد يلبس في الحرب.

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه[١] منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه، فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر، فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء، فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد، بل أن علموا فيها وجهًا جهلوا منها أوجهًا فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلًا.

ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الآجام[٢] جاثمة تعكف على الماء الصافي، فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك، فاختطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاءً لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة.

ولو رأى العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلًا إلى ما غاب عنهم؛ لرأي العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو.

---

(١) أي: قناة الأذن.

(٢) أي: الشجر الكثير الملتف.